﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصّف: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّحذيرُ من الرَّذائل يُناسبُهُ التَّرغيبُ في الفضائل

لمّا ذكر النَّظمُ الكريم ما يكرهُهُ اللّهُ، ويُبغِضُه من عبيدِه؛ ناسبَ أن يتكلَّمَ عمّا يُريدُهُ من عبادِه، ويُحبُّهُ لهم؛ إرشادًا لهم على الفضائل، كما حذَّرَهم منَ الرَّذائل، فبعدَ أنْ ذَمَّ الذين وعَدوا بالقتال ونحوِه من أفعالِ الخير، ولم يَفعَلوا؛ مدحَ الَّذين قاتلوا في سبيلِه وبالغوا فيه[1]، قال الطَّيبيُّ: "اعلم أنَّه لمّا بولِغَ في بُغْضِ القول إبهامًا؛ جيءَ بما يُحِبُّ من الفعلِ تعريضًا، فقوبِلَ البغضُ بالحُبِّ، والقولُ بالفعلِ، ووصفهُ بالبنيان المَرصوص؛ تعريضًا بالقولِ المتزلزِلِ والوعدِ المُخلَف"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَفًّا﴾: الصَّفُّ من (صفف)، يقال: صَفَفْتُ الشَّيءَ صفًّا من بابِ قتلَ[3]، وجمعُ الصَّفِّ صُفوف، وصففتُ القومَ، فاصطَفّوا[4]، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ وتساوٍ بينَ شيئين في المَقرِّ، من ذلك الصَّفُّ[5]، يقال: وقفا صفًّا؛ إذا وقفَ كلُّ واحدٍ إلى جنبِ صاحبِهِ، ثمَّ إنَّ الاصطفافَ إنَّما هو شعارُ الخدمةِ والاستسلام والطّاعة الصِّرفة، وهذا المعنى في المادّيّات إنَّما يتحقَّقُ بالوقوفِ على خطٍّ واحدٍ ظاهريٍّ، كما في صُفوفِ الصَّلاة والجهادِ وغيرهما[6]، والمرادُ به في الآية: الثَّباتُ عند القتال وعدمُ التفرُّق عندَ المواجهة.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.
(2) الطيّبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (صفف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صفف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفف).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 6/ 263.

2) ﴿بُنْيَٰنٌ﴾: البنيان من: (بني)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بناء الشَّيءِ بضمِّ بعضِه إلى بعضٍ، تقولُ: بنيتُ البناءَ أبنيهِ، والبنيانُ ما يُبنى[1]، والمرادُ به في الآية: الجدارُ المبنيُّ الثّابتُ الَّذي لا يتزلزلُ، ولا يَنهدِمُ.

3) ﴿مَّرْصُوصٌ﴾: من (رصص)، يقال: رَصَصْتُ البناءَ رَصًّا؛ إذا ضَمَمتَ بعضَهُ إلى بعض، منَ (الرَّصيص)، وهو انضمامُ الأسنانِ بعضِها إلى بعض، والتَّراصُّ: التَّلاصُقُ، قال ابنُ عبّاس: يُرفَعُ الحجرُ على الحَجَر، ثمَّ يُرَصُّ بحجارةٍ صِغار، ثمَّ يوضَعُ اللَّبِنُ عليه، تُسمّيه أهلُ مكَّة: المَرصوص، وقال مقاتلٌ: مُلتزِقٌ بعضُهُ ببعضٍ[2]، وقال الرّاغب: "كأنَّما بُنِيَ بالرَّصاص، ويقالُ: رَصَصْتُهُ ورصَّصْتُهُ، وتراصّوا في الصَّلاة، أي: تضايَقوا فيها"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذينَ يجاهدونَ في سبيلِ دينِه وضِمن شريعته، لا في سبيلِ غيره، ولا خارجينَ عن شريعته، صافّينَ أنفسَهم، كَأنَّهُم بُنيانٌ مُلتصقٌ بعضُهُ ببعض، مُتماسِكٌ أشدَّ التَّماسُك، بأن يدخلوا المعركة برأيٍ موحَّد، وأن يأخذ كلٌّ منهم محلَّه فيها، وألّا يكونَ في صفِّهم خللٌ[4].

محبَّةُ اللهِ للمجاهدين تتعاظَمُ عندَ الاصطفافِ المتَين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ عمّا قبلَه؛ لعلاقةِ شبه كمالِ الاتِّصال؛ إذ نجمَ من بيانِ كُره الله

اتِّفاقُ الكلمةِ في القتال أساسٌ للنَّصر وباعثٌ على الاستبسالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بني).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 432.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 287.

تعالى لقولٍ ووعدٍ بالقتال معَ عدمِ تصديقِه بالفعل والعملِ له سؤالٌ مُفادُه: وما الذي يُحبُّهُ اللّه تعالى؟ فأجابَ باللّازم؛ إذ يلزمُ من حُبِّ اللّه تعالى لوعدٍ بالجهاد، ويوافقُهُ العمل، أن يكونوا يدًا واحدةً في القتال، يشدُّ بعضُها بعضًا، قال ابنُ عاشور: "هذا جَوابٌ على تَمَنّيهِم مَعرِفَةَ أحَبِّ الأعمالِ إلَى اللّهِ"[1].

أو أنَّ الفصلَ لكمالِ الاتِّصال بينَ الجملتين؛ إذ تمارسُ هذه الجملة وظيفةَ البيان التَّخصيصيِّ لما فُهِم ضِمْنًا من محبَّةِ اللّه لقولٍ ووعدٍ يوافقُه العمل؛ بأنَّ ذلك الحُبَّ هو للثَّبات في المعركة، لمَن وعدَ بالقتال، ورغِبَ فيه، وليس للفرارِ منهُ، ولذا يرى الطَّيبيُّ أنَّ قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾: "بساطٌ لهذا، كما يقولُ: (لا تفعلْ ما يُلصِقُ بك العارَ، لا تُشاتم زيدًا)؛ ليقعَ النَّهيُ مَرَّتينِ عامًّا وخاصًّا، فهو أوْلى من النَّهي على الخصوصِ مرَّتين، فإنَّ ذلك تكرارٌ، وقلتُ: أراد أنَّه تخصيصٌ بعدَ تعميم"[2]، فهو بيانٌ: "لِما هو مَرضيٌّ عنده تعالى بعدَ بيانِ ما هو ممقوتٌ عندهُ"[3]، فالنَّهيُ العامُّ وردَ أوَّلًا، والمقصودُ اندراج هذا الخاصِّ فيه، وفائدةُ مثلِ هذا النَّظْم النَّهيُ عن الشَّيء الواحد مرَّتين، مُندرِجًا في العموم، ومُفرَدًا بالخصوص، وهو أوْلى من النَّهي عنه على الخصوص مَرَّتين؛ فإنَّ ذلك معدودٌ في حيّزِ التَّكرار، وهذا يتكرَّرُ مع ما في التَّعميم منَ التَّعظيمِ والتَّهويل[4].

العدولُ في الجواب:

لم يقُلِ النَّظمُ الكريمُ: (إنَّ اللّه يحبُّ أن تقولوا ما تفعلون) بعدَ أنْ بيَّن ما يكرَهُه اللّهُ، ويَمقُتُهُ، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ بيانًا لطبيعةِ ذلك القول المَمقوت، وهو الوعدُ بالقتال مع عدمِ الفعل، بل الفرارُ من المُقاتلة، فهو: "دليلٌ على أنَّ (المَقْتَ) قد تعلَّقَ بقولِ الَّذين وعَدوا الثَّباتَ في قتالِ الكفّار، فلم يَفوا"[5]، وصريحٌ في أنَّ ما قالوه عبارةٌ عن الوعدِ بالقتالِ، لا عمّا تقوَّلَهُ المتمدِّحُ، أوِ انتحلَهُ المُنتحِلُ، أوْ أعادَهُ المنافقُ، وأنَّ مناطَ التَّعييرِ والتَّوبيخِ هو إخلافُهم لا وعدُهم"[6]، ولذا أكَّدَ في الجوابِ على وحْدةِ الصَّفِّ، وعدمِ الفِرار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 381.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 217.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 523.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.

من خلالِ تشبيه الثَّباتِ في المعركة بالبنيانِ المَرصوص، فقد حقَّقَ العدولُ عن ذلك المرادَ من إخلافِ الوعد الممقوتِ، معَ فهم الالتزام بالوعد؛ إذِ الأشياءُ تُعرَفُ بأضدادها، وبهذا فسَّرَ الجوابُ طبيعةَ الوعد المُخلَف، وعلَّل تلك الكراهةَ الشَّديدة بأنَّها وصلت إلى درجة الفرارِ منَ القِتال.

تحقيقُ المعنى الأصليّ وزيادة، تفسيرٌ للمَقصِد وإفادة

دلالةُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

أكَّد النَّظمُ الكريم الجملةَ الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ نسبةِ الحبِّ والإرادةِ لذلك الصَّنيع؛ وإنَّما أكَّدَهُ مع عدم وجودِ شاكٍّ في ذلك أوْ مُنكِرٍ له؛ لأنَّ إخلافَ الوعدِ بالقتال معَ الفرار من المُجابَهة نزَّلتِ المُخاطَبينَ به منزلةَ مَن تردَّدَ في ذلك، أو شكَّ فيه؛ إذ عدمُ العمَل بالصَّواب مع اعتقادِ صحَّته وصدقِه، داعيةٌ للتَّنزيلِ، وإبرازٌ لشِدَّةِ النَّكير.

تنزيلُ المخاطَبين منزلةَ المنكِرين بيانٌ للغَفْلةِ عن الحقِّ المُبين

دلالةُ تقديمِ المسنَدِ إليه والتَّعبيرُ باسم الجَلالة:

قدَّمَ النَّظمُ الكريم المسندَ إليه على الجملةِ الفعليَّة، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بمصدرِ المحبَّة ومَبدئِها، ممّا يتوجَّبُ على الجميع عندَ معرفتِه أن يكونوا مُحبّين لذلك أيضًا، كما حدثت تقويةٌ وتأكيدٌ لنسبةِ المحبَّة له تعالى[1]؛ ردًّا على الَّذين يقولونَ ما لا يفعلونَ، فإنَّهم خالفوا ما يُحبُّهُ اللهُ تعالى لهم، وعَبَّر النَّظم الكريم عن الذّات الجليلةِ باسمِ العلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ الدّالِّ بوضعِه على الذّاتِ المُستجمِعةِ لكلِّ الفضائل والكمالاتِ؛ ليكونَ بمنزلة البُرهان على أنَّ حُبَّه نابعٌ من مصدرِ كلِّ كَمال، فيكون حبُّهم كاملًا لذواتٍ اتَّصفت بالكَمالات.

حُبُّ الله تعالى لخَصلةٍ توجِبُ استعظامَ تلك الفِعلة

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُحِبُّ﴾:

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسمِ ﴿إِنَّ﴾ بالفعل المضارعِ المُسند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 59.

لضميره، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الحبَّ مُستمرٌّ ومتجدِّدٌ بتجدُّدِ المتَّصفين بالقول الموافِقِ للعمل، والجهادِ المُتَّحِدِ الكلمة حتَّى يتحقَّقَ الانتصارُ لهم، وذلك مقترنٌ بائتلافِهم ووحدتِهم ضِدَّ عدوِّهم، وثمَّة طباقٌ بينَ ﴿مَقْتًا﴾ و﴿يُحِبُّ﴾، وهو طباق الفعلِ للاسم، وعبَّر عن (المقت) بالاسم ﴿مَقْتًا﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ لهذا الكُره الشَّديد، وعن (الحبِّ) بالفعلِ ﴿يُحِبُّ﴾؛ دلالةً على التَّجدُّدِ والحُدوث، فيكون بينهما طباقُ الاسميَّة والفعليَّة أيضًا؛ للدَّلالة على شدَّةِ التَّباينِ بينَ الموقفين، تبايُنًا أدَّى إلى تغايرِ التَّعبير عنهما اسميَّةً وفعليَّةً.

حبُّ الله نُصرةٌ بشرطِ اتِّحاد الكلمة

دلالة اختيار لفظ ﴿يُحِبُّ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿يُحِبُّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على النُّصرةِ والتَّأييد، قال ابن عطيَّة: "ومحبَّةُ الله تعالى: هي ما يظهَرُ عليهم من نَصْرِه وكَرامتِه، وهي صفةُ فعلٍ، وليست بمعنى الإرادة؛ لأنَّ الإرادة لا يصحُّ أنْ يقعَ ما يخالفُها، ونحن نجدُ المقاتلين على غيرِ هذه الصِّفة كثيرًا"[1]، والغرضُ من التَّجوُّزِ الإشارةُ إلى علَّةِ النُّصرة، وهي الرِّضا عمّا يفعلُهُ المؤمنونَ المُجاهدونَ.

الله ناصرٌ المؤمنين، ومؤيِّدٌ لهم على الكافرين

الإخبارُ بالجملةِ الفعليَّة:

اختارَ النَّظم الكريمُ الجملةَ الفعليَّة خبرًا عن اسم ﴿إِنَّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والحدوث[2]، مع التَّوكيدِ لذلك الحبِّ؛ إذ يلزم من هذا الإخبارِ تكرُّر الإسناد للذّاتِ الجليلةِ تارةً بالإسناد للفعلِ إلى الضَّمير، وتارةً أخرى بإسنادِ الجملة إلى اسمِها.

تكرُّرُ الإسناد يقوّي الحُكم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 302.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإجمالُ والتَّفصيلُ ممّا إليه النُّفوسُ تميل

عبَّر النَّظمُ الكريم عن الَّذين وقعَ عليهم الحُبُّ بالاسمِ الموصول، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على العمومِ معَ ما يُفيده الموصول من إبهامٍ تعملُ الصِّلة على توضيحِه وبيانِه، فيكونُ من قبيلِ الإجمالِ المرفَقِ بتفصيلِه وإيضاحِه، ففيه تشويقٌ لسماعِ الكاشفِ عن موطنِ الإبهامِ فيه.

دلالةُ جملةِ الصِّلة: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

تعليلُ الحُكمِ بالصِّلة دفعٌ للعملِ بتلك الخصلة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّة صلةً، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والحدوث والاستمرارِ، أي: يتكرَّرُ منهم القتالُ، ويتجدَّدُ حدوثُهُ ممّا يُؤدّي إلى تجدُّدِ الحُبِّ لهم ولعمَلِهم، مع الإيحاءِ إلى علَّةِ الحُكم بالحبِّ عليهم، وهو القتال؛ إذ تعليقُ الحُكم على جملةِ الصِّلة يشعرُ بعلّيَّة المصدرِ له، وفيه تنبيهٌ إلى أثرِ القتالِ وأهمّيَّتِه في حياة النّاس من أجلِ إحقاقِ الحقِّ ومنعِ الظُّلم.

دلالةُ حذفِ المتعلَّق:

الفعلُ هو الأساس، والقولُ ساقطٌ عن القياس

حذفَ النَّظمُ الكريم متعلَّق الفعلِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ للتَّركيز على القتال والاهتمامِ بالحدث؛ لأنَّهم يفعلونَ ما يقولونَ، بل الفعلُ هو الأساس، والقولُ ساقطٌ عن الاعتبارِ والقياس، أي: الذينَ يوجَدُ منهم القتالُ في سبيل الله، فهو من تنزيلِ المتعدّي منزلةَ اللّازم، ويمكنُ أن يكونَ باقيًا على التَّعدّي، وحَذْفُهُ لإرادةِ العموم، فيكون تقديرُهُ: (يقاتلونَ أعداءَ الله)[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفِ ﴿فِى﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الظَّرفِ ﴿فِى﴾، في قولِه تعالى:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.

ظرفيَّةُ العِلّيَّة حاصِرةٌ لكمالِ اللّمّيَّة

﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ المُستغرِق المحيطِ بالمعلول، والتَّقديرُ: (يقاتلونَ لأجلِ الله)، فيكونُ الباعثُ لقتالِهم هو نيل رِضا الله تعالى وحدَه، وليس لأجلِ الغنائم والمجدِ والشُّهرة، وإنَّما عبَّر عن التَّعليلِ بحرفِ الظَّرف؛ ليُفيدَ استغراقَ الظَّرفِ وعِلّيَّتَه للمعلولِ الَّذي هو القتال؛ إذ هنالك فرقٌ ظاهرٌ بينَ: (قاتلتُ لك، وقاتلتُ فيك)، فالأوَّلُ: يدلُّ على التَّعليلِ فقط من دون حصرٍ، والثّاني: يدلُّ على أنَّ العِلَّة منحصرةٌ، وقد توغَّل في تلك العِلَّة حتّى أخذتْ عليه كلَّ جوانبِه، قال البقاعيُّ: "يوقِعونَ القتال ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾، أي: بسببِ تسهيلِ طريقِه الموصلة إلى رِضاه إيقاعًا مظروفًا للسَّبيل، لا يكونُ شيءٌ منه كشيءٍ خارجٍ عنهُ"[1].

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في (السَّبيل):

منهاجُ الإسلام موصِلٌ إلى دار السَّلام

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السَّبيل)، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ الموضوعِ للطَّريق المُذَلَّلِ الميسَّر، وقد استُعيرَ للدّين والمنهج والطَّريقة، فيكون قد شبَّه الدّينَ بالطَّريق، بجامعِ الإيصالِ في كلٍّ إلى الهدفِ المنشود، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منها بيانُ أنَّ الدّين نظامٌ حياتيٌّ، ووسيلةٌ يكونُ الهدف منه الوصولَ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة، كما أنَّ الطَّريقَ المُذلَّلَ يوصلُ إلى المقصد بكلِّ يُسْرٍ ووُضوحٍ.

دلالةُ إضافةِ السَّبيلِ إلى الضَّمير:

نيَّةُ المُقاتلةِ المرضيَّةِ سرُّ لتحقيقِ السَّعادةِ الأبديَّة

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السَّبيل) إلى ضميرِ الاسم الجليلِ، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على تشخيصِ السَّبيل وتعيينِه[2]، والغرضُ من التَّشخيص: بيانُ أنَّ حُبَّ اللهِ للمقاتَلة؛ لأنَّها في سبيلِه ودينِه ومنهاجِه ونظامِه ليس إلّا، وقد اكتسبَ المضافُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 126.

التَّشريفَ والكرامةَ من المضافِ إليه، ويكونُ الجارُّ والمجرور بإضافتِه تقييدًا للمقاتَلة؛ ممّا يفيدُ بمفهومِ المخالفة أنَّ اللّه يكره القتالَ في غير سبيلِه، وقد أوحتِ الإضافةُ إلى أنَّ نيَّةَ المقاتلة لها دورٌ في تعليلِ المحبَّة، فيكون ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ دالًّا على نيَّةٍ جازمةٍ تقصدُ وجهَ اللّه ونيلَ رِضاهُ.

دلالةُ الحالِ أو المفعولِ المطلقِ ﴿صَفًّا﴾:

النّيّةُ السَّليمة، والـــوحـــدةُ القويمة، عِلّتانِ لإيجابِ الهَزيمة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالحال في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾؛ للدَّلالة على هيئةِ مُقاتلتِهم في سبيلِ اللّه، بأنْ يكونوا مُصطفّينَ صُفوفًا تجعلُهُم في عينِ العدوِّ وحدةً واحدةً، لا تَفَرُّقَ فيها ولا تَشَرْذُمَ؛ إذ أصلُ الصَّفِّ: "جَعْلُ الشَّيءِ على خطٍّ مُستوٍ كالنّاس والأشجارِ"[1]، ممّا يدلُّ على وحدةِ الكلمةِ واتِّحادِ المقصِد، كما أفاد الحالُ صورةَ المقاتلين الظّاهريَّة المُنبئةَ عن الوحدةِ المعنويَّة، وبذا تكون نيّتُهم صحيحةً؛ لأنَّهم في سبيل اللّه، وشكلُهم قويًّا؛ لأنَّهم في صفٍّ متكاتفٍ، والتَّعبير عن الحال بالمصدرِ؛ للدَّلالة على المبالغة، فهو "مصدرٌ وقعَ موقعَ الحال"[2]، فيكونُ المقاتِلون كأنَّهم الصَّفُّ بكمالِه، أي: "حتّى كأنَّهم في اتِّحاد المُرادِ على قلبٍ واحدٍ، كما كانوا في التَّساوي في الاصطفافِ كالبدَنِ الواحدِ"[3]، ولا يبعُدُ أن يكون النَّظمُ الكريم مُشتملًا على التَّشبيه البليغ الذي حُذِفَت منه أداةُ التَّشبيه، والتَّقدير: (المقاتلونَ كالصَّفِّ)؛ للدَّلالة على وحدةِ الكلمةِ والجدارِ المترابطِ المتينِ، وتُرشِّحُ إرادةَ التَّشبيهِ الدَّلالةُ التَّشبيهيَّةُ الصَّريحةُ بالبُنيانِ المَرصوصِ، وجعل الإمامُ الواحديُّ ﴿صَفًّا﴾ مفعولًا مطلقًا، والتَّقدير: (يصُفّونَ صفًّا)[4]، قال السَّمين: "يحتملُ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 343.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 475.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 8.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 432.

أن يكونَ مَصدرًا، وأنْ يكونَ بمعنى الصّافّينَ، ومعنى المصدريَّةِ أنْ يتناولَ الفعلُ قبلَهُ بهِ، كأنَّه قيلَ: (يصطفّونَ في القتالِ صفًّا)"[1].

عدمُ دلالةِ ﴿صَفًّا﴾ على التَّخصيص:

أثـــرُ الـفـهـم الظّاهر في عدم الوصولِ للعُمق الزّاخر

استدلَّ بعضُهم في استعمالِ لفظ ﴿صَفًّا﴾، على مدحِ المقاتِلين الرّاجلينَ مقارنةً بالمبارِزينَ الرّاكبينَ في قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾، وفنَّد الماتريديُّ هذا التَّصوُّرَ بقوله: "ليس فيه أنَّ اللّه تعالى لا يحبُّ المُبارِز؛ لأنَّ الجهاد والقتال على المبارِز أشدُّ، وذلك أنَّه إذا كان في الصَّفِّ أعانَهُ على القتال غيرُه؛ فكان أمنُهُ على نفسه في الصَّفِّ أكثرَ، وأمّا المبارِزُ؛ فإنَّه وحدَهُ ليس له مُعين؛ فإن ظفِرَ على صاحبِه وإلّا هلك، والخوفُ عليه في ذلك أشدُّ، فيجب أن تكون المحنة فيه أكثرَ، ولكنَّه يجوز أنْ يكونَ اللّه تعالى علَّمَهم بهذه الآية كيفيَّةَ القتال؛ ليستعينَ بعضُهم ببعض، ولتكون كلمتُهم واحدةً؛ لأنَّهم إذا تفرَّقوا؛ اختلفت آراؤُهم، فيُخشى عليهم الهزيمةُ والإدبار، وإذا كانت آراؤُهم متَّفقةً، وكلمتُهم واحدةً، وشوكتُهم واحدة، فذلك قوَّةٌ في القتالِ وزيادة نُصرة"[2].

المصدرُ ﴿صَفًّا﴾ بين الفاعليَّة والمفعوليَّة:

اتِّـحـادُ الـصَّـفِّ ثباتٌ على الهدف

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالمصدرِ في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾، فإنْ كان ﴿صَفًّا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ فهو باقٍ على المصدريَّة بلا تأويلٍ، وإن كان حالًا؛ فهو إمّا بمعنى اسم الفاعل، أي: صافّينَ أنفسَهم، وإمّا بمعنى اسمِ المفعول، أي: مَصفوفينَ، وكونُهم صافّينَ أنفسَهم دالٌّ على اتِّحادِ كلمتِهم وسَعْيِهم في الثَّباتِ على حالةٍ قويَّةٍ، ولذا قال الهرريُّ: "مصدرٌ وقعَ موقعَ الفاعلِ أوِ المفعول، ونصبُهُ على الحاليَّة من فاعلِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، أي: حالَ كونِهم صافّينَ أنفسَهم أو

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 343.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 629.

مَصفوفين، أو منصوبٌ على المصدريَّةِ بعاملٍ محذوفٍ، والمفعولُ محذوفٌ، أي: يَصفّونَ أنفسَهم صَفًّا"[1].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿صَفًّا﴾:

الانتظامُ والتَّدبُّر تحقيقٌ للنَّصر المُؤزَّر

كنَّى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿صَفًّا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ "عَنِ الانتظامِ والمُقاتَلَةِ عَن تَدَبُّرٍ، وأمّا حَرَكاتُ القِتالِ؛ فَتَعْرِضُ بِحَسَبِ مَصالِحِ الحَرْبِ، في اجتماعٍ وتَفَرُّقٍ وكَرٍّ وفَرٍّ؛ إذ أصلُ الصَّفِّ عَدَدٌ من أشياءَ مُتَجانِبَةٍ مُنْتَظِمَةِ الأماكِنِ، فَيُطْلَقُ على صَفِّ المُصَلّينَ، وصَفِّ المَلائِكَةِ، وصَفِّ الجَيْشِ في مَيْدانِ القِتالِ بالجَيْشِ، إذا حَضَرَ القِتالُ؛ كانَ صَفًّا مِن رَجّالَةٍ أو فُرْسانٍ، ثُمَّ يَقَعُ تَقَدُّمُ بَعضِهِم إلى بَعضٍ فُرادَى أو زرافاتٍ"[2].

دلالةُ (كأنَّ) التَّشبيهيَّة:

صفوفُ المؤمنين ثابتةٌ لا تتزلزلُ بـضـربـاتِ المعتدين

استعملَ النَّظمُ الكريم أداةَ التَّشبيه (كأنَّ)، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ للدَّلالة على تشبيه هيئتِهم الصَّفّيَّة واصطفافِهم للقتال، بالبُنيانِ المَرصوص مع توكيدٍ في النِّسبةِ التَّشبيهيَّة، فهُم بُنيانٌ لا يهربونَ، كما أنَّ البنيانَ لا يتحرَّكُ من مكانه، ولا يوجدُ في صفِّهم فراغٌ ينفُذُ العدوُّ منه، كما أنَّ البنيان قد تراصَّتْ أجزاؤه، وتلاحمَتْ مكوِّناتُهُ تلاحُمًا حسّيًّا ومعنويًّا، ولذا قال الإمام الواحديُّ: "مَن يثبتُ في الجهاد في سبيلِه يلزمُ مكانَهُ كثبوتِ البناءِ المرصوص، ويجوزُ على أنْ تستويَ نيّاتُهُم في حربِ عدوٍّ؛ حتّى يكونوا في اجتماعِ الكلمة وموالاةِ بعضِهم بعضًا كالبنيان المَرصوص، فالأوَّلُ على التَّشبيه به في رأيِ العَين، والثّاني على التَّشبيه من حيثُ التَّضافرُ كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بَعْضًا"[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 433.

الموقع الإعرابيُّ لـ ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾:

تـكـرُّرُ الـحـال بيانٌ لهيئةِ أهلِ القتال

لمّا كان الرّاجحُ في ﴿صَفًّا﴾ الحاليَّةَ؛ ذهبَ الزَّمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾، إلى أنَّها من الحالِ المُتداخلة، فقال: حالانِ مُتداخلتانِ، أي: إنَّ الحالَ الثّانية وقعتْ جزاءً من الحالِ الأولى؛ لأنَّ معنى ﴿صَفًّا﴾: مُصطّفين، وفيه ضميرُهُ، وقوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾ حالٌ من الضَّمير المذكور، فالحالُ الثّانيةُ داخلةٌ في الأولى، وهي كقوله: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 2 - 3]؛ إذ المشبَّهُ به في الحقيقة بيانٌ للمشبَّه ووصفٌ له"[1]، فلمّا كانَ الاصطفافُ يصدقُ مع التَّقدُّم والتَّأخُّرِ اليسيرِ؛ نفَى ذلك بقولِه حالًا بعدَ حالٍ: ﴿كَأَنَّهُم﴾"[2]، وأوضحَ القونويُّ وجهَ التَّقييدِ بالحاليَّة، والتَّداخُلَ فيها، والاختلافَ بينَ الحالينِ إفرادًا وجملةً، فقال: "حالٌ من المُستكِنِّ؛ إذ كونُهم مُصطفَينَ أعمَّ، فقُيِّدَ بالتَّراصِّ، والحالُ الأولى مشتملةٌ على الثّانية، فوُجِدَ معنى التَّداخُلِ فيها، والمشبَّهُ المقاتلونَ بقيدِ الاصطفافِ، والمُشبَّه به المقاتلونَ أيضًا بقيد التَّراصِّ، فظهرَ وجهُ التَّقديمِ، ووجهُ كونِ الأولى مُفردةً والثّانيةِ جملةً"[3]، وقال الحوفيُّ: "﴿كَأَنَّهُم﴾ في موضعِ النَّعت لـ ﴿صَفًّا﴾"[4].

دلالةُ الضَّمير في ﴿كَأَنَّهُم﴾:

الضَّميرُ العائدُ للذّات يتحلَّى بجميعِ الصِّفات

استعملَ النَّظمُ الكريم ضميرَ الغَيبةِ مشبَّهًا، في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ للدَّلالةِ على ذواتِ المقاتلينَ المُعلَّلِ قتالُهم بنيلِ رِضا اللّه تعالى، وبكونهم مُصطفّينَ اصطفافًا مَتينًا مُترابطًا مُحكَمًا، فالضَّميرُ وإنْ دلَّ على الذَّواتِ إلّا أنَّه يعود إليها بكلِّ ما تحملُهُ من صفاتٍ حتّى يتحقَّقَ التَّشبيهُ بينَ المُشبَّه والمُشبَّه به،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 383.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.
(3) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 68.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.

فكأنَّهم "من شِدَّةِ التَّراصِّ والمُساواة بالصُّدور والمَناكِب والثَّباتِ في المراكز بنيانٌ"[1].

دلالةُ الخبرِ ﴿بُنْيَانٌ﴾:

البناءُ صامِدٌ أمامَ السَّيلِ الجارف والرّيحِ العاصِف

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المشبَّه به بلفظ (البُنيان)، في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ للدَّلالة على البناءِ الثّابتِ الَّذي لا يتحرَّك، "والمعنى: حالَ كونِهم مُشبَّهينَ في تراصِّهم من غير فُرجةٍ ولا خللٍ، ببنيان رُصَّ بعضُهُ إلى بعض، ورُصِفَ حتّى صارَ شيئًا واحدًا"[2]؛ إذِ العيشُ في البنيان غيرُ الحياةِ في الخيام، فهو يصمُدُ أمامَ السَّيلِ الجارف، والهواءِ العاصِف، فيكون دالًّا على الثَّباتِ والاستقرار والصُّمود، ويُضفي على المشبَّه دلالةَ الصَّفِّ الصّامدِ، الَّذي لا يتزلزلُ أمامَ ضرباتِ المُعتدين، فهُم إنْ ضَرَبوا الصُّفوف؛ فكأنَّهم يضربونَ البناءَ الثّابتَ الذي لا يَتزلزلُ، قال الماتريديُّ في بيانِ دلالة التَّشبيه: "ضُرِبَ هذا المَثل للثَّبات، يعني: إذا اصطفّوا؛ ثَبَتوا كالبنيانِ المرصوص، الَّذي يكون ثابتًا مُستقرًّا لا ينتقضُ بأدنى شيء، ومنهم مَن قال: ضُرِبَ هذا المثل؛ لأن تكونَ كلمتُهم واحدةً، ويُعين بعضُهم بعضًا، ويشبه أنْ يكونَ للأمرينِ جميعًا؛ لأنَّهم إذا ثبَتوا؛ أعانَ بعضُهم بعضًا، وكانت كلمتُهم واحدةً، وإذا كانت كلمتُهم واحدةً؛ كان ذلك أدعى إلى الثَّباتِ وأقربَ إليه؛ فلذلك قلنا: إنَّه يجوزُ أنْ يكونَ للأمرينِ جميعًا"[3].

دلالةُ الصِّفةِ ﴿مَّرْصُوصٌ﴾:

الصَّفُّ لا يتزلزَلُ، ولا ينفُذُ منه عدوٌّ، فيَتخلخَلُ

وصفَ النَّظمُ الكريمُ المشبَّهَ به في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ للدَّلالة على حالةِ التَّلاحُم بينَ أجزاءِ البُنيان، فلا فجوةَ فيه ولا منفذَ لدخولِ شيءٍ فيه، فهو: "لاصقٌ بعضُه ببعض، قد أُحكِم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 629.

فليس فيه فُرجةٌ ولا خلَلٌ"[1]، ويُضفي على المشبَّه صفةَ التَّلاحُم والتَّماسكِ بينَ أفراد صفوفِ المقاتلينَ، حتّى يبدوَ اجتماعُهُم لا يتزلزلُ، ومُتماسِكًا بحيثُ لا ينفذُ عدوٌّ إليه، ولا يستطيعُ اختراقَهُ، فيتخَلخَل، والتَّشبيهُ بأكملِه كنايةٌ عن جيشٍ ثابتٍ لا يهربُ، ولا يَفِرُّ، وقوَّةٍ مُتماسِكةٍ لا ينفُذُ لساحتِها عدوٌّ، قال ابنُ عاشور: "والتَّشبيهُ في الثَّباتِ وعَدَمِ الانفلاتِ، وهو الَّذي اقتَضاهُ التَّوْبيخُ السّابِقُ، في قَولِهِ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُبُّ والإرادة:

الـحُـبُّ أخـصُّ مُـطـلـقًـا مـن الإرادة

لا يلزمُ من الحُبِّ للشَّيءِ إرادتُهُ، فقد يُحِبُّ الإنسانُ شيئًا، ولا يُريدُهُ؛ إذِ المحبَّةُ ميلٌ قلبيٌّ، والإرادةُ ترجيحٌ لأحدِ طَرَفَي المُمكن، وقد نُحبُّ قضاءَ العطلة بلا درسٍ ولا تعبٍ، لكنَّ إرادتَنا لا تتعلَّقُ بترجيحِ جهةِ ما نُحِبُّ، والمولى تعالى يحبُّ لعباده الإيمانَ، ولكنْ لا يُريدُهُ لبعضٍ منهم، وهي في حقِّ اللّه تعالى صفةُ فعلٍ.

القتال والجهاد:

الـقـتـالُ أخـصُّ مـنَ الـجِـهاد من وجهٍ

القتالُ مشتقٌّ من القتل، ويكونُ دالًّا على النِّزاعِ بينَ اثنينِ أو جماعتينِ، حتّى يؤدّي إلى إزهاق الرّوح بآلاتٍ معيَّنة، وأمّا الجهاد؛ فهو من الجَهْد والطّاقة، ويُستعمَلُ بمعنى القتالِ في سبيل اللّه، كما يُستعمَلُ في مُجاهدةِ النَّفس على أهوائِها ومُجاهدة الرَّغبة في المعاصي بأفعالِ الطّاعات، كما أنَّ القتالَ قد يكونُ في سبيل اللّه، وقد يكونُ في سبيلِ المَجد والتَّوسُّعِ والغِنى، في حين أنَّ الجهادَ لا يكون إلّا في سبيل اللّه، فبينَ الجهاد والقتالِ تلاقٍ من وجهٍ وافتراقٌ من وجهٍ.

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.

الصَّفُّ والجَماعة:

الصَّفُّ من الاصطفافِ والتَّوالي بينَ الجَماعات، نقولُ: (جاءَ القومُ صفًّا صفًّا)، أي: جماعاتٍ متتابعةً بعضُها خلفَ بعضٍ، فالصَّفُّ: هم الجماعةُ المُستوونَ، وأمّا الجماعةُ فمِنَ الجمعِ، وقد يكونونَ مُتساويينَ أو غيرَ مُتساويين، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ صفٍّ جماعةٌ، ولا ينعكِسُ كلّيًّا.

الـصَّـفُّ أخـصُّ مـن الـجـمـاعـةِ مُطلقًا

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"